

الحيرة النبوية

في كتابات المستشرق الهولندي

أرنست جان فنسنك «١٨٨٢-١٩٣٩م»

■ بقلم الدكتور محمد مختار المفتي

♦ نماذج من الدسّ والتشويه في الإنتاج الموسوعي للمستشرق فنسنك (شبهات وردود):

● شعيرة الحج وتلقيبات المستشرق فنسنك في أصولها.

● لم تكن نظرة النبي إلى الحج واحدة على الدوام.

يقول المستشرق الهولندي فنسنك تحت مادة "أصل الحج في الإسلام": "لم تكن نظرة النبي إلى الحج واحدة على الدوام، فلا بد أنه اشترك كثيراً في مناسكه وهو حَدِيث، أمّا بعد دعوته فقد كانت عنايته قليلة أول الأمر بالحج، فلم يرد ذكر الحج في السور القديمة. ولا يبدو من المصادر الأخرى أن النبي اتخذ خطة محددة حيال هذه العادة الوثنية الأصل".

الإسلام، وإنما يفسر هذا الأمر بأنه أثر لفكرة جاهلية".

وينساق "فنسنك" تحت مادة "إحرام" مع هذه الدعوى قائلًا: "ونلاحظ أن ثوب

ويفصل "فنسنك" أكثر في دعمه لهذه الشبهة فيقول تحت نفس المادة: "إن

الوقوف في سهل عرفات من أهم مناسك الحج، فالحج بدون الوقوف باطل في

الجاهلية، ومنها ما كان على عهد الديانات السامية أيضاً كاليهود فيقول في مادة "إحرام": "إن محرّمات الإحرام قد غدت قاسية في نظر النبي، لذلك نجده أشاء مكثه في مكة قبل الحج يتحلّل من هذه المحرّمات.. وعلى ذلك فإن ما تراءى للنبي ومعاصريه أنه إهمال يستوجب التكفير قد غدا في نظر الأجيال اللاحقة أمراً مباحاً.. وقد منع الشرع المحرّم من جملة أمور: النكاح والتطيّب وإراقة الدم والصيد، كما حرّم اقتلاع النبات.

نلاحظ بهذه المناسبة أن بعض الأديان السامية يحرم النكاح في حالات أخرى، ونخص بالذكر من هذه الأديان ما يقول بالتوحيد، وكان إهمال العناية بالبدن ظاهرة معروفة بين الشعوب السامية في الأحوال الدينية، وتصوّر لنا الروايات أن النادبات في الجاهلية كنّ قدزرات ذوات شعر أشعث. ويمتّع اليهود مدّة حدادهم عن الاستحمام وتقليم الأظفار. ويذكرون أن الحجّاج في الجاهلية وفي عصر النبي كانوا يضمّخون شعورهم بالادهان وقت الإحرام تخفيفاً لوطأة القذارة.

يكفي جواباً على هذه الأوهام أن القرآن الكريم يصرّح في أكثر من آية كريمة أن بيت الله الحرام هو واحد، وقد

الإحرام ربما كان الثوب المقدّس عند قدماء الساميين، إذ إنّ الجزء الأعلى من الثوب الذي كان يرتديه الكاهن الأعظم في "العهد القديم" كان غير مخيط.. ويرتدي كهنة اليهود الأفود "الصُدرة" حول الحرقمتين والميل حول الكتفين. ونجد لهذا نظيراً في الإسلام عند الصلاة وفي تكفين الميت.

وكان العرب في جاهليتهم عند الكهانة يلبسون رداءً ومثزراً، كما كان الزهاد المتأخرون يرتدون مثل هذا الثوب. يضاف إلى ذلك أن اللون الأبيض يعدّ مقدساً في كثير من الأديان.. فلباس الإحرام والحالة هذه قديم جداً ولا يرجع أصله للإسلام. زد على ذلك أن لبس الحذاء محرّم كذلك.. وهذه عادة سامية قديمة كذلك.. ويجب كذلك على المحرم أن لا يغطّي رأسه، وربما كانت هذه عادة من عادات الحزن قبل الإسلام.

وينقل "فنسنت" رأي المستشرق سنوك هجرونييه في هذا الموضوع، الذي تصوّر هذه الشبهة مرة بأنها نظريات يراها النبي ﷺ ليتفادى بها الصورة القاسية التي كانت تمارس بها هذه العبادات في الجاهلية، ومرة أخرى يصوّرها بأنها ممارسات مشتتة على قدزرات كانت على عهد

الكريم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاةً وَتَصَدِيَةً﴾ الأنفال ٣٥، فأمر الله تعالى نبيه الكريم محمداً ﷺ بإعادة مناسك الحج الإلهي إلى صورته الأولى إمضاءً لشريعة إبراهيم عليه السلام فيها، حيث قال في قرآنه المجيد: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَخَّامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: ٩٦-٩٧.

رؤية المستشرق الهولندي فنسك لشعيرة الصلاة في "دائرة المعارف الإسلامية" شبهة ورد:

● اتخذ النبي محمد شعيرة الصلاة من اليهود والمسيحيين في بلاد العرب؛

يناقش المستشرق الهولندي فنسك فريضة الصلاة في "دائرة المعارف الإسلامية" التي اشرف على تحريرها من منطلقات مغلوطة، فيقول: "ويبدو أن كلمة صلاة لم تظهر في الآثار الأدبية السابقة على القرآن، وقد اتخذها محمد (ﷺ) كما اتخذ الشعيرة من اليهود والمسيحيين في بلاد العرب".

ويستمر "فنسك" في إبرام شبهته هذه

أقام قواعده نبي الله إبراهيم عليه السلام وولده نبي الله إسماعيل عليه السلام وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ثم أمر الله سبحانه نبيه إبراهيم عليه السلام أن يطهر هذا البيت لأداء عبادة الحج الإلهي، حيث جاء في القرآن الكريم عن ذلك: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الحج: ٢٦-٢٧.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ البقرة: ١٢٥.

واستمر الحال زمناً طويلاً حتى أفسد أهل الجاهلية هذا الحج الإبراهيمي، وحرّفوه عن شرعته الإلهية باتخاذهم الأصنام في بيت الله وشعائر الحج الأخرى شركاء لله سبحانه يتقربون إليها دونه تعالى، ومحققوا صورته الأولى التي شرّعها الله لنبيه إبراهيم عليه السلام، واستبدلوها بالدجل والهراء، حتى وصفهم القرآن

فيقول تحت المادة نفسها: "واشتقاق كلمة (صلوطا) الأرامية واضح كل الوضوح، فالأصل "صلاً" في الأرامية يعني الانحناء والانثناء والقيام.. وتستعمل في كثير من اللهجات الأرامية للدلالة على الصلاة الشرعية.. وقد نقل محمد كلمة الصلاة بهذا المعنى من جيرانه.. ويكشف نظام الصلاة عند المسلمين عن تشابه كبير بصلاة اليهود والمسيحيين.. ومن البين أن محمداً لم تكن بين يديه أول الأمر المادة الوافية لهذه الشفيرة؛ ولقد كانت تعوزه النصوص التي يتلوها ويرتلها اليهود والمسيحيون في صلاتهم".

ويستمر "فنسك" تحت المادة نفسها قائلاً: "ومن ثم فنحن نجد فجأة الصلاة الوسطى تظهر في السور المدنية وهي البقرة، الآية ٢٢٧، ولا بد إذن أن تكون هذه الصلاة قد أضيفت في المدينة إلى الصلاتين المعتادتين، ويرجح أن يكون ذلك قد تم محاكاة لليهود الذين كانوا يقيمون أيضاً صلاتهم (ثلاثة) ثلاث مرات كل يوم".

ويقول أيضاً: إن "جولد زهر" وفي معرض رده على "هوتسما" في كيفية تقرير الصلوات الخمس يرى عكس ما يراه الأخير ويذهب إلى القول بوجود أثر فارسي في تقرير الصلوات الخمس.

وعن عدد الركعات في الصلوات الخمس يقول "فنسك" تحت مادة "الصلاة": "إن الحديث النبوي يقول أيضاً: إن الصلاة كانت في الأصل من ركعتين وإن هذا العدد نفسه عمل به في صلاة السفر.. ويفترض "متفوخ" وجود التأثير اليهودي في الاختيار الأصلي للركعتين".

أقوال "فنسك" المتعددة تحت مادة "الصلاة" يرد عليها كالآتي:

١- قوله: "ويبدو أن كلمة صلاة لم تظهر في الآثار الأدبية السابقة على القرآن.. فيرد عليه من أن مجرد وجود شبه لفظي في حرف أو حرفين من كلمة عربية مع كلمة من لغة أخرى لا يمكن أن تعد دليلاً ناهضاً على الأخذ والاستقاء إذ بهذه الطريق سوف نهدم الكثير من صيغ الوضع اللفظي للغات، إلا إذا ساق المدعي دليلاً أو قرينة معتبرة على مدعاه. مع تأكيدنا على بطلان ما ادعاه، فإن كلمة صلاة وردت في الشعر العربي الجاهلي قبل نزول القرآن الكريم، كما في قول أعشى قيس:

يرأوح في صلواته للملك

طوراً سجوداً وطوراً جوار

والسجود على وجه مخصوص وأركان وأذكار مخصوصة.

وقيل: إنها سمّيت صلاة لأن المصلي متعرّض لاستتجاح طلبته من ثواب الله ونعمه مع ما يسأل ربه فيها من حاجاته.

٢- قوله: إن نظام الصلاة عند المسلمين يشابه بدرجة كبيرة صلاة اليهود والمسيحيين.. وإن الصلاة الوسطى ظهرت فجأة في سورة البقرة المدنية، وإنها أُضيفت إلى الصلاتين المعتادتين فأصبحت ثلاثة، ثم يفرع عليها رجحان أن ذلك قد تمّ محاكاة لصلاة اليهود (ثقلاه) التي تقام ثلاث مرات كل يوم.

يرد عليها أن التشابه يكون مرة بعد الصلوات، وأخرى بشكلية الصلاة من قيام وركوع وسجود وأمثالها، وثالثة بمضامين الصلاة من قراءات وأذكار، أما الجانب الأوّل فإن الصلاة التي شرعها الإسلام هي خمس صلوات وليس ثلاث صلوات كما لدى اليهود حسب قول "فنسنك" نفسه، وليست سبعة كما لدى المسيحيين وهي "صلاة" البكور وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة والثانية عشرة ثم صلاة منتصف الليل.

والصلوات الإسلامية الخمسة هذه محددة أوقاتها بموجب آيتين قرآنيتين

ومعنى الصلاة لغة الدعاء والاستغفار؛ فقد قال الأعشى أيضاً:

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها

فإن ذبحت صلى عليها وزمزمًا

أي دعا لها، وقال أيضاً:

وقابلها الريح في دنّها

وصلى على دنّها وارتم

أي دعا لها أن لا تحمض ولا تفسد، والصلاة من الله تعالى: الرحمة، قال عدي بن الرقاع:

صلّى الإله على امرئ ودّعته

وأتّم نعمته عليه وزادها

وقال:

صلّى على عزّة الرحمن وابنتها ليلي

وصلّى على جاراتها الآخر

وأصل الاشتقاق في الصلاة من اللزوم من قوله: «تصلى ناراً حامية»، والمصدر الصلا، ومنه اصطلّى بالنار إذا لزمها، والمصلّي الذي يجيء في أثر السابق للزوم أثره، ويقال للعظم الذي في العجز: صلاً، وهما صلوان، أمّا في اصطلاح الشريعة الإسلامية فهي عبارة عن العبادة الخاصة التي شرعها الإسلام والمشتمة على الركوع

ما يبين لك من حال الصلوات الأربع، ثم صلاة الفجر، فأفردت بالذكر.

أما الصلاة الوسطى الواردة في سورة البقرة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى﴾ فقد جاء في معنى الآية: الحث على مراعاة الصلوات، ومواقيتهن، وألاً يقع فيها تضييع وتفريط.

وعليه فلا يضر أن تكون هذه الآية مدنية لأنها لم تكن بصدد أصل تشريع الصلوات الخمس، بل جاءت للحث على مراعاة الصلوات ومواقيتهن وخصوصاً الصلاة الوسطى منهن والتي سبق تشريعها في الآيات المكية السالفة الذكر، وبهذا تبطل دعوى فنسك بأنها أضيفت في المدينة إلى الصلاتين المعتادتين، ويبطل أيضاً قوله بأنها ثلاث صلوات أو ثلاث مرات والتي يفرع عليها دعوى محاكاتها لصلاة اليهود "ثقله"، كما يبطل مشابقتها لصلوات المسيحيين من هذه الناحية لثبوت أن الصلوات المشرعة هي خمس وليست ثلاثاً كما عند اليهود، وليست سبعة كما لدى المسيحيين كما أسلفنا.

أما الجانبان الثاني والثالث من التشابه المدعى ففيه أنه ورد "أن الأصل في جميع صلوات المسيحيين إنما هو الصلاة الربانية التي علمها السيد المسيح، والأصل

نزلنا على الرسول ﷺ في مكة المكرمة وليس في المدينة المنورة، وهما في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ الإسراء: ٧٨، وفي سورة هود في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ آية: ١١٤.

وفي بيان دلالة هاتين الآيتين، جاء في تفسير البغوي لقول الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ قال: الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، فدلوك الشمس: يتناول صلاة الظهر والعصر، وإلى غسق الليل: يتناول المغرب والعشاء، وقرآن الفجر: هو صلاة الصبح وقول الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ طرفاه: المغرب والفداء ﴿وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ وهي صلاة العشاء الآخرة..

وفي تفسير الآية الأولى قال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة: "دلوكها زوالها، وقال الحسن: ﴿لَدُلُوكَ الشَّمْسِ﴾ لزوالها: صلاة الظهر، وصلاة العصر إلى ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ صلاة المغرب والعشاء الآخرة، كأنه يقول من ذلك الوقت إلى هذا الوقت على

صيفتها المعروفة. وكانت هناك غير الصلوات أوراد شمسية من الثناء والتضرع.. وكثيراً ما كانت الصلوات الرسمية التي تُتلى في الكنائس توجّه إلى الله الأب، وكان عدد قليل منها يوجّه إلى الروح القدس؛ ولكن صلوات الشعب كانت توجّه في الأغلب إلى عيسى ومريم، والقديسين.

أما صلاة اليهود فقد ورد عنها القول: "أما اليهود فليس في التوراة ما يدل دلالة صريحة على كيفية إقامة الصلاة عندهم، والظاهر أنهم إنما كانوا يتلونها وقوفاً إلا في الاحتفالات الكبرى، حيث كانوا يسجدون، وكان لها ثلاثة أوقات قانونية: الصبح والظهر والمساء".

أما الصلوات في الإسلام فقد ذكر الفقهاء كيفيتها استناداً إلى الأدلة الشرعية من القرآن الكريم والسنة الشريفة فقالوا: "فهي تتكون من ركعات، والحد الأقصى من الركعات في الصلاة أربعة، كصلاة العشاء مثلاً، والحد الأدنى من الركعات في الصلوات الواجبة ركعتان كصلاة الصبح، وفي الصلوات المندوبة ركعة واحدة وهي ركعة الوتر.

وعلى العموم فالركعات هي: الوحدات والأجزاء الأساسية التي تتكون منها

في تلاوتها أن يتلوها المصلي ساجداً، وقد تكون الصلاة لفظية، بأن تتلى بالفاظ منقولة أو مرتجلة، وتكون عقلية بأن تتوى الألفاظ ويكون الابتهاال قلبياً محضاً".

ثم يحكي لنا مصدر آخر كيفية تطوّر صلواتهم قائلًا: "نشر الرهبان الفرنسيون عادة (طريق الصليب) أو (مواضعه) وهي التي تقضي بأن يتلو المتعبّد صلوات أمام صورة أو لوحة من لوحات أو صور أربع عشرة تمثّل كل منها مرحلة من مراحل آلام المسيح؛ فكان القساوسة والرهبان والراهبات وبعض العلمانيين ينشدون أو يتلون أدعية الساعات القانونية وهي: أدعية، وقراءات، ومزامير، وترانيم صاغها البندكتيون وغيرهم وجمعها "الكوين" و(جريجوري السابع) في كتاب موجز.

وكانت هذه الأدعية تطرق أبواب السماء.. كل يوم وليلة في فترات، بين كل واحدة والتي تليها ثلاث ساعات. وعن مضامينها يقول المصدر نفسه: "وأقدم الصلوات المسيحية هما: الصلاة التي مطلعها "أبانا الذي في السموات" والتي مطلعها "تؤمن بإله واحد"، وقبل أن ينتهي القرن الثاني عشر بدأت الصلاة التي مطلعها: "السلام لك يا مريم" تتخذ

الصلاة، ويستثنى من ذلك الصلاة على الأموات، فإنها مكونة من تكبيرات لا من ركعات، وليست هي صلاة إلا بالاسم فقط.

وهناك شروط يجب توافرها في كل صلاة وهي على قسمين: أحدهما شروط للمصلي، والآخر شروط لنفس الصلاة، وأهمها أن يكون المصلي على وضوء وطهارة وأن يكون بدنه طاهراً وكذلك ثيابه وأن يستقبل القبلة (وهي الكعبة المشرفة) وأن يقصد بالصلاة القرية إلى الله تعالى.

وقد وردت روايات كثيرة عن الكيفية وعن مضامينها وأجزائها وشروطها، ذكرتها كتب الحديث في باب الصلاة. بعد هذا الاستعراض نرى بالمقارنة بين الصلوات لدى اليهود ولدى المسيحيين وبين الصلوات في الإسلام وجود اختلاف أساسي بينها في العدد وفي الأوقات وفي شكلياتها ومضامينها.

فمن أين استتج "فنسك" التشابه الكبير بينها ومحاكاة بعضها لبعض وأمثال ذلك في المقولات والدعوات الجرافية التي لا دليل ولا شاهد عليها؟ هذا مع العلم أننا نلاحظ من خلال سوقنا لما نقل عن صلاة اليهود وصلوات المسيحيين، أن يد التغيير البشرية قد طالت الأصل وأحدثت فيه

الشيء الكبير، إذ نجد أن مفرداتها . وخصوصاً صلوات المسيحيين . غدت مشبعة بمبدأ التثليث الذي هو من مقولات الشرك بالله سبحانه وتعالى، بخلاف مبدأ التوحيد والإخلاص لله وحده لا شريك له في العبادات الإسلامية الذي تعبر عنه جميع مفرداتها وخصوصاً الصلاة منها التي يشترط فيها كما أسلفنا نية التقرب لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهذا ما يؤكد حقيقة التحريف في الديانتين اليهودية والمسيحية وفي كتابيهما التوراة والإنجيل، والتي لا نعدم وجود تشابه في أصولهما قبل التحريف بين الأحكام الواردة فيهما والتي لم تتسخ، وبين نظائرها من الأحكام الواردة في القرآن الكريم والسنة الشريفة لأنها من سراج واحد.^(١)

❖ فنسك والزيف العلمي.. قصة

بحيرا الراهب:

النظرة الاستشراقية لقصة بحيرا الراهب . تشعنا بقليل من رائحة التدني المنهجي والزيف العلمي، وتحت اسم "بحيرا" من دائرة المعارف الإسلامية، قال المستشرق "فنسك": "وهذه القصص قسم خاص من الأساطير التي أحاطت بسيرة

مضرب المثل في الوقاحة الدراسية . إن صح التعبير . هو ما اكتشفه "فنسك" حول شخصية "بحيرا"، الذي حرص على ذكره، وهو أن "الروايات الإسلامية حول شخصية "بحيرا" قد جمعت كلها بالتفصيل في "سفر بحيرا" لكاتب مسيحي في القرنين الحادي عشر أو الثاني عشر . يدعي "إشوعيب" وقد ورد في الكتاب كيف لقن سرجيوس "وهو الاسم الحقيقي لبحيرا" محمداً ﷺ عقيدته وشرائعه وأجزاء من القرآن، وذلك بقصد أن يجعل العرب يعترفون بإله واحد .

ولم يعلق الأستاذ العالم المنهجي "فنسك" لا بحرف واحد يدل على القيمة التاريخية لهذه المقولة، وكأن الروايات إذا أريد بها إظهار معرفة أحبار أهل الكتاب برسول الله ﷺ قبل مبعثه فهي أساطير كلها، وإذا أريد بواحد منها أن "محمداً نبي كاذب كان يتلقى توجيهه من راهب ملحد" وهذا هو نتاج المنهج العلمي والأمانة العلمية عند المستشرقين^(٢) ١١٩

◆ فنسك والعقيدة الإسلامية؛

ألف المستشرق فنسك كتاباً في العقيدة الإسلامية بعنوان: «العقيدة الإسلامية نشأتها وتطورها التاريخي» نشرت مطبعة جامعة كامبردج هذا الكتاب

النبي محمد، ولها نظائر كثيرة من النوع نفسه، وكلها ترمي إلى أن أهل الكتاب عرفوا من كتبهم من قبل بعثة محمد .

وهذا الصنيع من "فنسك" يحاول أن يسجل حكماً عاماً على كل الأخبار التي تواترت بتعرف الأبحار والرهبان والكهان على النبي ﷺ قبل مولده، وقبل مبعثه، وبعد مبعثه، وهو صنيع يضرب ببيدهيات المنهج العلمي عرض الحائط، إذ لا يدخل في غمار البحث المنهجي حول رواية القصة ونقلتها، والدراسات التي صيغت حولها، وإنما يبادر إلى القول الفج غير المعلن بأنها أسطورة، ويلحق هذا اللهاث الجريء بلهاث آخر ينهي فيه القضية من أساسها، فيرى أن "نظائرها" من هذا النوع الأسطوري نفسه، ومن هنا يقوِّض . بأمنيته . مبدأ أن أهل الكتاب قد تعرفوا على بعثة محمد ﷺ من خلال كتبهم، على الرغم من أنه مبدأ موجود في القرآن الكريم أصلاً، وليس مستقى من هذه القصص، وإن كانت هذه القصص تعد تأكيداً وتطبيقاً لهذا المبدأ القرآني.

أما أن المجال مجال مناقشة هذه النتيجة فلا، وإنما المراد هو اطلاع القارئ على صورة البحث العلمي عند رؤوس الاستشراق، وطريقتهم في الاستنتاج، ولكن

بسبب ما أدخله بولس على المسيحية في القرن الأول من عقائد وثنية، مثل عقيدة أن المسيح ابن الله، وأنه صلب للتكفير عن خطايا البشر.

ثم ما تلا هذه الانحرافات من إعلان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م (برئاسة الامبراطور قسطنطين) قراره الرسمي بإتخاذ عقيدة ألوهية المسيح وبنوته لله عقيدة رسمية للامبراطورية الرومانية، ثم إعلان مجمع القسطنطينية سنة ٢٨١ قرار تأليه الروح القدس. وبذلك اكتملت عقيدة التثليث، وهي عقيدة شرك لا شك فيه صنعتها قرارات البشر. وكل هذا "التطور"، أي الإنحراف الوثني في العقيدة المسيحية، لم يحدث مثله قط في الإسلام، وذلك لسبب واضح، وهو أن القرآن الكريم - وهو مصدر العقيدة الإسلامية - لم يحرف ولم يبدل، فقد حفظه الله من كل تحريف وتبديل، كما قال الله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ الحجر: ٩.

أما كتاب المسيحية - وهو كتاب العهد الجديد المعروف عند المسيحيين بالإنجيل المقدس - فقد ثبت تحريفه، كما ثبت تحريف العقيدة المسيحية الأساسية عن ألوهية المسيح، بالأدلة العلمية والتاريخية

في طبعتين: الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢م، أي أثناء اشتغال المستشرق بإعداد المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي والطبعة الثانية سنة ١٩٦٥، وهي الطبعة التي رجعنا إليها في هذا البحث.

وفي التمهيد يتقدم فسنك بالشكر والامتنان لمستشرقين آخرين، ساعدوه مساعدة عظيمة في إعداد الكتاب ولولا مساعدتهم هذه - كما يقول - "لكان من المستحيل عليه أن يعد الكتاب للنشر" ومن هؤلاء المستشرقين توماس آرنولد مؤلف كتاب: الدعوة إلى الإسلام، وهاملتون جب مؤلف كتاب: المحمدية.

❖ الاسلام والمسيحية:

في بداية الفصل الأول من الكتاب يشبه المستشرق العقيدة الإسلامية بالعقيدة المسيحية في تعرض كل منهما "للتطور التاريخي على أيدي الأجيال التالية لعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام"^(٢)، وهذا كلام باطل من أساسه.

فمن المعروف أن العقيدة المسيحية في أصلها الموحى به إلى عيسى عليه السلام كانت عقيدة توحيد، ثم دخل عليها التحريف والانحراف بعده، حتى أصبحت في القرن الرابع الميلادي عقيدة شرك وتثليث وذلك

ﷺ في بداية دعوته في مكة، عندما كان عليه أن يواجه شكوك المكيين الذين لم يؤمنوا بالبعث واليوم الآخر.

كما يزعم أن الرسول ﷺ في مكة كان يبشر بدين مستمد من اليهودية والنصرانية ومن ثم كان يردد قصص الأنبياء المذكورين في التوراة والإنجيل، لينذر قومه بما حدث لمكذبي الرسل قبله، وليثبت أتباعه القليلين من حوله. ولكنه ﷺ في المدينة قوي مركزه، وزاد أتباعه فكونوا أمة، وتخلص من اليهود لأنهم رفضوا الايمان برسالاته، وأصبح زعيماً سياسياً ورئيس دولة، فلم يعد بحاجة إلى ترديد قصص الأنبياء التي كان يرددها في مكة للوعظ والإنذار وتحول اهتمامه إلى التشريع والفتاوى، والغنيمة والفيء، وتحديد العلاقات مع القبائل الوثنية، وممارسة الشعائر الدينية، وبوجه خاص إلى الأمر بطاعة الله ورسوله، وفرض الإسلام على الناس بعد السيف.. وتلك هي دعائم الحكومة الدينية التي أقامها الرسول ﷺ في المدينة، وامتد سلطانها بعد السيف! خارج الجزيرة العربية بعد وفاته.

ويمضي المستشرق في افتراءاته محاولاً تدعيمها بمستشرقين آخرين، وبخاصة

القاطعة التي بينها علماء مسلمون وغير مسلمين. ولكنه الحق الدفين لدى المستشرقين اليهود والنصارى على الإسلام، ولا سيما بسبب أن الله حفظ القرآن الكريم من التحريف الذي تعرض له كتابهم المقدس، الذي يشمل العهدين القديم والجديد. ولعل هذا من أهم أسباب "الحسرة" التي يشعر بها الكافرون تجاه القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ ♦ وإنه لحق اليقين! الحاققة: ٥١-٥٢.

القرآن- في زعم المستشرق فنسبك - لا يحتوي على العقيدة الإسلامية بصورة واضحة!

يزعم هذا المستشرق أن القرآن لا يحتوي على خلاصة واضحة للعقيدة الإسلامية، يمكن اتخاذها وصفاً مميزاً للإسلام، في مقابل الأديان الأخرى، أو في مقابل العقائد الخاصة للفرق الإسلامية^(١).

ويشير إلى اختلاف الدعوة في مكة عنها في المدينة، ويعزو هذا الاختلاف إلى شخصية الرسول ﷺ، وتأثرها بالبيئة والظروف قبل الهجرة وبعدها. فيزعم أن الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث واليوم الآخر تكون جوهر "الوعظ" لدى محمد

صديقه هرجرونية، فيزعم أن كل ما كان محمد ﷺ يهتم به، ويوجه عنايته إليه، في المدينة، ليس هو صياغة العقيدة، بل ممارسة السلطة، وذلك عن طريق الحكومة الدينية التي أقامها هناك.

وهكذا تحولت شخصية محمد ﷺ من شخصية واعظ تقي في مكة إلى شخصية سياسي وحاكم في المدينة، ليس لديه رغبة في التفكير في العقيدة الإسلامية وصياغتها صياغة واضحة يضاف إلى هذا أن طبيعة محمد ﷺ لم تكن قط طبيعة مفكر وفيلسوف ديني، ولهذا ركز كل اهتمامه في ممارسة السلطة، ولم يتجه قط إلى صياغة العقيدة.

يقول المستشرق: "ربما ندعوه (ﷺ) نبياً أو سياسياً أو كليهما، ولكنه بالتأكيد لم يكن فيلسوفاً دينياً (١٩) وأكثر من هذا أن التفسير الذي أحدثته الهجرة وعواقبها في حياته قد سبب تغييراً في موقفه العام، ويقول: "لا ينبغي أن نبحث لنجد في محمد أو في طبيعته أو في مجرى حياته ما يمكن أن يبرر لنا أن نتوقع منه أن يصوغ عقيدة". (٥)

لا يريد هذا المستشرق (و غيره) أن يفهم أن محمداً ﷺ رسول الله، وأنه لا يصوغ عقيدة من عنده، وإنما يتلقى الوحي بها من ربه، شأنه في ذلك شأن جميع الرسل من قبله، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: ٢٥ .

ولكن دعنا نسأل المستشرق: إذا كنا لا نجد العقيدة الإسلامية الواضحة في القرآن فأين نجدها إذن؟ ويجب المستشرق العلامة: نجدها في الحديث! وتذكر أيها القارئ مرة أخرى أن هذا المستشرق -كغيره من المستشرقين- يزعم أن الحديث -أو أكثره- ليس من كلام محمد ﷺ، بل من كلام الصحابة والتابعين وتابعي التابعين! وطبقاً لهذه الافتراءات يصبح الإسلام كله من وضع البشر، وليس ديناً أنزله رب العالمين، على خاتم الأنبياء والمرسلين! وهذه الافتراءات وأمثالها هي التي يسميها المستشرقون وعملاؤهم: "دراسات موضوعية".

يتحدث المستشرق عن العلاقة بين العقيدة الإسلامية والحديث النبوي

تذكر أيها القارئ أن هذا المستشرق -كغيره من المستشرقين- يزعم أن القرآن ليس وحياً من الله، بل من كلام محمد

(الأحاديث النبوية) ليست من كلام الرسول ﷺ، بل من وضع الصحابة، وهذه الأحاديث الموضوعية هي التي وضعت العقيدة الإسلامية، ومهدت لصياغة كلمة الشهادة وتحديد أركان الإسلام! وإذن فلأجل أن نفهم "التطور" الذي حدث في العقيدة الإسلامية ينبغي أن نركز على دراسة "الحديث النبوي"

ولتسهيل هذه "الدراسة" كان لا بد لفنسنك وأصحابه من وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي للوصول بسهولة إلى هذه الأحاديث، واستخدامها في هدم الإسلام من قواعده! وهكذا يتضح لنا "منهج" المستشرق: أنه الطعن في العقيدة عن طريق الحديث. والنتيجة الحتمية هي الطعن في كليهما.

◆ كلمة أخيرة:

يجب أن نؤكد على أننا نحن أهل الشرق لا نرفض دراسات المستشرقين في مجال الفكر الإسلامي، بل نتحاور معها شريطة أن تتحلى بروح الموضوعية المنصفة، ثم نتعامل معها على أساس الدراسة والنقد والتمحيص، ونحن نرحب بكل فكر ما دام ليس فيه عدوان على الإسلام، وهو مبدأ من أوليات مبادئه، يقول الله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ

فَيَقُولُ: "بوجه عام، فإن أقدم نموذج للشهادة (كلمة التوحيد) نجده في الحديث (النبوي)، أي في الكتابات التي تأخذ شكل أقوال تنسب إلى محمد ﷺ، ولكنها (أي الأحاديث النبوية) في الحقيقة مرآة لتاريخ الأفكار الإسلامية خلال القرن الأول الهجري (أي أنها أحاديث موضوعية).

ففي الحديث نجد أقدم المناقشات والتعريفات للإيمان والإسلام، والإيمان وعلاقته بالعمل، وأركان الإسلام، وعقيدة اليوم الآخر، وكان لا بد أن تمر عدة عقود من الزمان بعد وفاته ﷺ لنجد علماء المسلمين يعبرون عن العناصر الجوهرية في الإسلام، ويوضحون العقيدة الإسلامية، ويصوغون كلمة الشهادة، ويعددون الأركان الخمسة للإسلام، ويضعون ذلك كله في أحاديث ينسبونها (كذباً) إلى الرسول ﷺ.

ويصرح المستشرق بهدفه الحقيقي من دراسة الحديث فيقول: "أن كتب الحديث - وهي مصدرنا الرئيسي (لجمع) المعلومات عن التطور المبكر لعلم العقيدة الإسلامية - قد حفظت (لنا) سلسلة من أقوال محمد ﷺ التي يجب أن تعتبر حصيلة لجهد (علمي) في العقيدة، قام به جيل الصحابة، أي أن هذه "الأقوال"

مقصودة أو غير مقصودة.

ثالثاً: هؤلاء القوم مهما بلغت معرفتهم بلفستنا فإنه يغيب عنهم روح الشرق وعبقرية ألفاظه وتعبيراته التي تؤدي إلى معان شتى، ولذا قد نجد بعضاً من نتائجهم العلمية خاطئة ناهيك عن تعمد البعض منهم ذلك.

رابعاً: لا نتوقع منهم جميعاً أن يتحدثوا عن الحضارة الإسلامية والرسول الكريم ﷺ كما نتحدث نحن المسلمون.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

❖ الهوامش:

- ١- مجمع افتراءات الغرب على الإسلام والرد عليها، أنور الزناتي، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٩م.
- ٢- الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله محمد الأمين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- ٣- أنظر: رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد عبد الحميد غراب، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ، المنتدى الإسلامي.
- ٤- المستشرقون والسيرة النبوية، مناهج المستشرقين، عماد الدين خليل، المنظمة العربية.
- ٥- مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، خالد بن عبد الله القاسم، دار الصميمي بالرياض، الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»
النحل: ١٢٥.

فالإسلام وسيلته في الحوار: «الحجة البالغة، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، واستبعاد كل أساليب الإكراه» ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة: ٢٥٦، وبالتالي يمكن أن نعلن أنه قد انتهى العصر الذي كان يقول فيه المستشرقون حرفاً فيرد عليهم أهل الشرق آمين!!

وعلى الرغم من انقضاء عهد الاستشراق الذهبي، إلا أن نقده ما زال مستمراً وإذا أردنا أن نؤسس لعلاقة جديدة بين الشرق والغرب أو بتعبير أدق بين الإسلام والغرب، علينا أن نطلع على جذور المد المعرفي لكلا الحضارتين.

● وهناك عدة أمور لا بد أن نقر بها:

أولاً: أن الدراسات الاستشراقية مهما كانت موضوعية في مضمونها ومحتواها إلا أنها لم تسلم من تعصب وهوى والعمل على خدمة نزعات دينية واستعمارية -إلا من رحم ربي-.

ثانياً: لا تخلو هذه الدراسات من هنات وأخطاء لغوية وأحياناً علمية وتاريخية